نظرية التعبير

ظلتْ نظرية المُحاكاة مُسيْطرةً على الحياة النقدية الأوربية إلى غاية أواسط القرن الثامن عشر18 م حيث شهِدت أوربا تَغَيُّراتٍ جِذْريةً هزّتْ أبنِيّة المُجتمع سياسيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا، وقد هيمنت طبقة البرجوازية على المجتمع، وقامت بنهضةٍ صناعيةٍ واقتصاديةٍ استلزمت قيام نهضةٍ فكريةٍ علميةٍ وثقافيةٍ واجتماعيــة.

وقد صحب هذا التحول تغير الحياة بانتقال النَّاس من الريف إلى المدينة، مما نتج عنه تَعَقُّدُ العلاقات الاجتماعية وتشابُكُها، وظهورُ ونموُّ الرّوح الفردية، وقد قامت الثَّورة الفرنسية بشعارها الإخاء والمساواة والحرية، ومن الناحية الصِّناعية ظهرت المطابع، وتم طبع الصحف والكتب وانتشر التعليم، وكل ذلك أدى إلى ظهور نظرية التعبير المرتبطة بالبرجوازية.

الأسس الفكرية لنظرية التعبير

مثلما ظهر في الاقتصاد شعار "دعه يعمل اتركه يمر"، ظهر بالموازاة له في الأدب مبدأ دعه يُعَبِّر، فانتشرت حريّة التّعبير، وطغت الرُّوح الفردية، وهي فردية تختلف عن الفردية الإقطاعية، حيث إنَّ الفردية الإقطاعية ترتَبِط بالسيطرة على الأرضِ وملكيتها، كما ترتبط الفردية الإقطاعية بالعائلة والجاه والحَسَبِ والنَّسب، أما الفردية البرجوازية فتعتمد على روح المغامرة وحرية الذَّهاب والإياب، والاعتماد على الرَّغبات الفردية والإمكانات الذاتية بعيدا عن الانتماء العائلي، فالعبرة أساسًا بالوجود الأوليّ للذّات أو الوعي الإنساني، ثم يأتي بعد ذلك العالم الخارجي أو العالم الموضوعي، وإذن فإنّ الأولوية للشّعور والوجدان والعاطفة، والفن هو تعبير عن الصورة الخاصة للعالم. ويعد كانت وهيجل المنظران الأساسيان للبرجوازية. [1]

أعلام نظرية التعبير

لعل أهم علمين في نظرية التعبير هما وليم وردز ورث وصمويل تايلور كولردج

وليم وُرْدْزْوُرْثْWillam Wordsworth 1770Z1850

كتب وردز ورث ديوان "غِنائيات" بالاشتراك مع صديقه "كولردج "1798وطُبع الكتاب ثانية سنة 1800 مع مقدمة بقلمه تُبيّن الآراء النقدية التي على أساسها كُتِبتْ تلك القصائد، وقد عُدَّتْ هذه المقدمة من النُّصوص النّقدية المهمة في تاريخ النّقد، ولعلّها كانت السبب في أن يكتب "كولردج" كتابه " سيرة أدبية"، يقول "و ردزورث" إنّ كلَّ شِعْرٍ جيّدٍ هو فيضٌ تلقائيٌّ لمشاعرَ قويّةٍ، وهي عبارةٌ تُبْعِد تماما كل أشكال الصّنعة في الإبداع. فالانفعال في رأيه هو الذي يُوجه السلوك والعقل، والشعر هو تعبيرٌ عن الانفعال، ولمّا كان الشّعر كذلك، فإن اللغةَ المناسبة له هي اللغة الطّبيعية العاديةُ التي تجري على ألْسِنة البُسَطاء من الناس، ولذلك فقد رفض ما يُسمى باللغة الشّعرية أو الألفاظ الشّعرية، وعلى مستوى الموضوعات، فليس هناك موضوعات محددة، فكل مظاهر الحياة صالحة للتناول يقول:« **وما الشّاعر؟ إنّه إنسان كسائر النّاس، ولكنّ الله حَبَاه بنعمة الحماس الفائر، والحسّ المُرْهف، والحنان العذب، إنّه يفوق النّاس عِلْما بطبيعة الإنسان، ويُدْرك من جوهر الحياة مالا يدركُه غيرُه. إنّه إنسان فرحٌ بما عنده من إرادة، طَرِبٌ لما له من عواطف، مُغْتَبِطٌ بما يحس به من رُوح الحياة، لذلك هو يتأمل هذه العواطف، وتلك الإرادة، وهي تتجلّى في غيره من المخلوقات والكائنات، ولقد اعتاد أنْ يخلُقَها حيث لا يجدُها،**

1- يمكن الرجوع إلى الصفحة 77 من هذا الكتاب

يُضافُ إلى ملكاته تلك أنه قد كوّن في نفسه العادة لأن يتأثّر بما هو ليْس موجودًا كما يتأثر بالموجود، وأن يجمع في نفسه عواطف بعيدةً كل البعد عن هذه التي تُحْدِثها الأحداث العاديّة ولكن في الوقت نفسه تشبه هذه العواطف التي تثيرها الحياة العادية أكثر مما تشبه الانفعالات التي تتولّد عند الناس العاديين بفعل العقل وحده، لذلك ولأنه مَرِنٌ كثيرًا نراه قد استعد استعدادًا ممتازا لأن يُعبر عما يحس وعما يُفكر، ولأنْ يعبر بوجه خاص عن هذه الأفكار، وتلك العواطف التي يختارها هو أو يختارها له تركيبُ عقله، والتي تنفجر فيه دون أي مؤثر خارجي»[2]

صمويل تايلور كولردج Sammel Taylor Coleridge 1772-1834

يُعد "كولردج"صاحب نظرية أما "وردز ورث" فهو ناقد، ويعده النقاد ألمع اسم في تاريخ النقد بعد "أرسطو"[3]، ونظريته هي نظرية الخيال الأدبي، رفض "كولردج" فلسفة "كانت" في الخيال والمتمثلة في أن الخيال هو وسيلة لجمع الجزئيات الحِسية المتفرقة، تقول سُهِير القَلَمَاوِي: «**وقرأ كولردج نظرية الفيلسوف الألماني الشّهير "كانت"، وقابله وناقشه، ولكن فلسفة "كانت" في الخيال لم تَرُقْ له، ذلك أنّ "كولردج" يرى أن الإدراك مزج بين ما يُرى وكيفية رؤيته، هو التجاوب بين المادة والعقل، والخيال هو الذي يوَحِد بين المادة والعقل، وليس إدراك صورة الشيئ المجردة هو الإدراك، وإنما هو هذه الصورة، وما نراه معها وقت رؤيتهامن رواسب مما نعرف، مما لا سلطان لنا عليه في أن يتحدَ مع هذا الشّيء بالذات ساعة الإحساس به**» [4] ففي رأيه، فإن الخيال ليس تذَكُر شيئ أحسسناه من قبل وقدْ تجرد من قيود الزمان والمكان، ومن كل علاقاته وارتباطاته، لا، ولا هو جمع بين أشياء تم الإحساس بها من قبل، لتأليف شيءٍ لم يُحَس، ولكنّه في الواقع خلْقٌ جديدٌ، إنّه خلْق صورة لم توجد وما كان لها أنْ توجد، بفضل الحواس وحدَها أو العقل وحدَه، إنما هو صورة تأتي ساعة تستحيل الحواسُ والوجدان والعقل كُلًّا واحدًا في الفنان، بل كلا واحدًا في الطبيعة، هذا الخيال وحده هو الذي يُميّز بين الشّعراء العباقرة والشّعراء المُتشاعرين. و"كولردج"لم يُلْغِ أثر العقل والإدراك، فالعقل هو القوة الكونية العامة والضرورية للإقناع والإيمان، وهو مصدر وأساس تفوق الحقيقة على المشاعر، وهو يحمل الحقيقة في ذاتها، أمّا الإدراك فهو مَلَكَةٌ أوْ قدرةٌ تُرَتّبُ وتُنَظِّمُ الحقائق العامة، وتعكس الانطباعات والمشاعر، هاتان القوتان العقل والإدراك تتحدان في الشّعر أو الفن بواسطة الخيال الذي يصْهر ويُدْمج الخاص والعام، المادي والمثالي، الفكرة والصورة، المضمون والشكل، فالخيال يُذيب، يُشتت، ، يولد، يجدد من أجل إعادة الخلق. ويرى كولودج أن الخيال نوعان « **إنني أعتبر الخيال إذنْ إما أوليًّا أوْ ثانويّا، فالخيال الأولي هو في رأيي القُوة الحيوية أو الأولية التي تجعل الإدراك الإنساني مُمْكِنًا، أما الخيالُ الثانوي فهو في عرْفي صدى للخيال الأولي، غير أنّه يوجد مع الإرادة الواعيّة، وهو يشبه الخيالَ الأَوَّلِيَّ في نوع الوظيفة التي يؤديها، ولكنه يختلف عنه في الدرجة وفي طريقة نشاطِه. إنّه يُذِيبُ ويُحَطِّمُ ويُلَاشِي لكي يخلُقَ من جديد، وحين لا تتسنى له هذه العملية، فإنَّه على الأقل يسعى إلى إيجاد الوحدة وإلى تحويل الواقع إلى مثالي، إنّه في جوهره حيويٌّ، بينما الموضوعات التي يعمل بها في جوهرها ثابتةٌ لا حياةَ فيها**» [5]. الخيال نوعان: أوليٌّ يوجد لدى كل النّاس، وخيال ثانوي هو الخيال الشعري، أو

2- سهير القلماوي: فن الأدب، المحاكاة، مطبعة البابي الحلبي وأولاده 1953، مصر، ص 126

3- سهير القلماوي: نفسه، ص 126

4- سهير القلماوي: نفسه، مصر، ص 128

5- محمد زكي العشماوي: دراسات في النقد الأدبي المعاصر، دار الشروق، 1994، ص 264

الخيال الذي يتمتع به الشّعراء فقط، والخيال الشعري أو الثانوي لا يهتم بالجزئيات أو بالعلاقة بين الذات المدرِكة والموضوع المدرك، لأن موضوع الخيال الثانوي ينبغي أن يكون غائبًا، فالشّاعر يعطينا صورةَ الشيء كما تراءت له، أو كما تخيّلها في شكلٍ من الأشكال، والشاعر يختار من جزئيات الموضوع أو الشيء الصفاتِ التي تهمه، لذلك فإن الموضوعات التي يعمل بها الخيال الثانوي موضوعاتٌ ثابتةٌ ولا حياة فيها، والخيال الثانوي يتخذ مادته من الواقع بعد أن يلْغيَّه أو يعتبره غير موجود، فكأنّ الخيال الثانوي يهتم ليس بالكشف عن العلاقة بين الذات والموضوع المُدْرَك كما يفعل الخيال الأولي، وإنما بالكشف عن العلاقة الخفية بين ذات الشاعر، وكيفية تصوره للأشياء الموجودة في الطبيعة. لذلك فالخيال الشعري يُذيب ويحطم ويلاشي لكي يخلق لنا صورة جديدة تحل محلَّ موجودات الطبيعة عن طريق الخيال، فأجزاؤها المادية هي عناصر موجودةٌ بالفعل في الواقع، لكنها في مجموعها متخيَّلَةٌ أي من صنع خيال الشاعر الذي قام بصهْرِها والتوحيد بينها. والذّات تلتحم بالموضوع وينتج عن ذلك شكلٌ جديدٌ له صفات الكائن العضوي الحي، ومن هنا جاءت فكرة الشكل العضوي مقابلةً للشكل الآلي الذي قالت به نظرية المحاكاة.

ويوضح الدكتور محمد زكي العشماوي الفرق بين الخيال الأولي والخيال الثانوي أو بين الإدراك والخيال بالمثال الآتي: إذا حاولتُ التعرف على شيئ معين وليكنْ مكتبٌ مثلا فلا بد من ذاتٍ تعي المكتب وموضوع الذي هو المكتب وعملية الكشف حيث يعمل الخيال عملَه، وكذا حين التعرف على شخص شاهدتُه من قبل، فبمجرد رؤيتي له أستطيع التعرف عليه بناء على الخيال حيث أستحضرُ صورتَه السابقة بملامحها وجزئياتها، لكن في الخيال الثانوي الأمر لا يتعلق باستحضار الشّيء بل بصورة الشيء، مثلا فنان يريد استحضار صورة صديقه عليًّا هو لا يسترجع صورة علي كما هي، وإنما يعطينا صورةً كما تتراءى له أو كما يتخيلها، فهو يقدم لنا صورة غيرَ مُطَابِقة، إنه يقدم لنا صورةً لشيئ متحرِك متغير متخَيّل، ويكون عليٌّ في هذه الحالة غائبا عن الإدراك الحسي، وبالتالي فإن هذه الصورة تفترض عدم وجود الشيء. فالصورة المقدمة تجمع عدةَ أجزاء من الطبيعة وَحَّدَ بينها الشاعر بخياله، ولذلك فقد أكد "كولردج" على أن الخيال الثانوي يذيب ويحطم ويلاشي لكي يخلق من جديد.[6]

كما ميّز "كولردج" بين الخيال والوَهْم، فالوهم يجمع بين جزئيات باردة منفصلة جَمْعًا تَعَسُفِيًّا وهو على النقيض من الخيال من حيث ميدانُه المحدد والثابت، فهو ليس إلا ضربًا من الذاكرة تحرَّرَ من قيود الزمان والمكان. ويَعْتَبِرُ "كولردج" الخيال الشّعري قِمَّةَ الملكات الإنسانية بل ذُرْوَةَ النّشاط الإنساني أيضا.

والخلاصة

- أن نظريةَ التَّعبير قوَّت العلاقة بين الأدب والسِّيرة، وبمعنى آخر شجَّعت على بروز أدب السّيرة، وقد قال كولردج في هذا الشأن: إنَّ أية حياة مهما كانت تافهةً، ستكون مُمْتِعَةً إذا رُويتْ بصدق، وقد ساعدَ هذا على بروز النّقد البيوغرافي أو السِّيَرِي الذي يرى أن الأدبَ صورةٌ عن المشاعر والخِبْرات الشخصية.

- قوّت هذه النظرية العلاقة بين الأدب وعلم النفس، فظهرت الدّراسات التي تحاول الكشف عن العالم الدّاخلي للإنسان، وقد ربطت بين الموهبة الفردية والإنتاج الأدبي، ويعد "كولردج" ممهدا للفرويدية فلسفة وأدبا[7]

مقارنة بين نظرية المحاكاة ونظرية التعبير

6- محمد زكي العشماوي: نفسه، ص 167-268

7- شكري عزيز الماضي: في نظرية الأدب، ص 62-64

الرقم	نظرية المحاكاة	نظرية التعبير
1	تضع قواعد وقوانين لا بد من اتباعها	تمثل التمرد على كل القواعد والقوانين والنظم
2	القيمة للعقل والمنطق	القيمة للعواطف والانفعالات
3	الطبيعة ناقصة أو مزيفة	يعتبرها كولردج أعظم الشعراء جميعا
4	الأدب موضوعي لأنه محاكاة للعالم	الأدب ذاتي فردي بالدرجة الأولى
5	الأدب وليدالالهام (أفلاطون) أو المحاكاة(أرسطو)	الأدب وليد الانفعال (وردز ورث) والخيال(كولردج)